مجلـــة كليـــة التربيـــة طرابلـــس

Journal of the Faculty of Education Tripoli

المتخيل الروائي التاريخي في رواية التبر لإبراهيم الكوني

زينب الحراري جرجر

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، كلية التربية طرابلس، جامعة طرابلس، طرابلس، ليبيا.

البريد الإلكتروني: z.jarjar@uot.edu.ly

Article history

Received: Apr 28, 2024 Accepted: May 16, 2024

الملخص:

يعتبر الفن الروائي من أهم الفنون الأدبية الذي ساهم بشكل كبير في الكشف عن العديد من القضايا الحياتية، فالروائي الكوني في روايته (التبر) حاول أن يوغل في أعماق البيئة الصحراوية، بصفة عامة والطوارق بصفة خاصة. لقد تطرقنا في هذا البحث إلى بعض الإشارات التاريخية التي استقى منها الروائي مصادره، فلجأ إلى توظيف الهوامش بين الحين والآخر، وعبر مخيلته السردية. استطاع أيضاً أن يوغل في أعماق البيئة الصحراوية، فكان للمكان أثره على حياة الإنسان في الصحراء إذ يمثل العمق التاريخي الضارب، والمؤثر على حياة الشخوص والحياة الإنسانية برمتها، ويعني بها قبائل الطوارق ونسبهم، ولغتهم وأماكن تواجدهم أيضاً. كل هذا يعد شكل من أشكال السرد والتوثيق التخييلي، ومن الإشارات التاريخية التي جاءت في ثنايا السرد أخبار متناثرة ساقها الروائي عن طريق الاسترجاع والتذكر فترة النضال والجهاد ضد الغزو الإيطالي من الصحراء حتى الحمادة، والكفرة، والجبل الأخضر. وليس هذا فحسب، بل رصد تحركات الشخوص في الصحراء واتجاهاتهم وتنقلاتهم عبر القوافل التجارية التي تمتد من أفريقيا حتى غدامس، وقد نهل من مناهل تاريخية تؤكد حركة القوافل ومرورها وتجارة القوافل بين المناطق في الصحراء. ولقد احتوت الرواية على عدة قضايا أهمها: الهجرة والنزوح من مناطق إلى أخرى لأسباب عدة منها: الجدب والقضية الأخرى هي المجاعة، والتي تدل على قسوة العيش وصعوبته. ونلمح في السرد توظيفه للرموز والإشارات التاريخية متمثلة في الآثار المحفورة، وبهذا استطاع الروائي الكوني أن يسرد للقارئ لأحداث وعالم الصحراء بكل تفاصيله.

الكلمات المفتاحية: إبراهيم الكوني، رواية التبر، المتخيل الروائي.

The Historical Fictional Imagination in the Novel Al-Taber by Ibrahim Al-Koni

A B S T R A C T:

Novelist art is considered one of the most important literary arts which contributed significantly to revealing many life issues, as the cosmic novelist in his novel (Al-Tiber) tried to penetrate into the depths of the desert environment, in general and the Tuareg in particular. In this research, we have touched on some historical references from which the novelist drew his sources, so he resorted to employing margins from time to time, and through his narrative imagination. He was also able to penetrate into the depths of the desert environment, so the place had an impact on human life in the desert, as it represents the historical depth that affects the lives of the characters and human life as a whole, and means the Tuareg tribes, their lineage, their language and their whereabouts as well. All this is a form of narration and imaginary documentation, and one of the historical references that came within the narrative is scattered news that the novelist gave and by retrieving and remembering the period of struggle and jihad against the Italian invasion from the desert to Hamada, Kufra, and Jabal al-Akhdar. Not only that, but also monitoring the movements of people in the desert, their directions and movements through commercial caravans that extend from Africa to Ghadames, and we have learned from historical sources that confirm the movement and passage of convoys and the trade of caravans between regions in the desert. The novel contained several issues, the most important of which are: migration and displacement from one region to another for several reasons, including: attraction. The other issue is famine, which indicates the harshness and difficulty of living, and because of the hunger in that period, we glimpse in the narrative his employment of historical symbols and references represented in the excavated monuments, and thus the cosmic novelist was able to narrate to the reader the events and the world of the desert in all its details.

Keywords: the fictional imagination- (Al-Tiber) novel -Ebraheem Alkouny

المقدمة:

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اهتمت الرواية بأنواعها المتعددة برصد التحركات والتفاصيل للحياة الإنسانية برمتها. والرواية التاريخية من خصائصها أنها تجمع بين عناصر التاريخي وعناصر الرواية في سرد خيالي للأحداث. وكان الاتجاه نحو الرواية الليبية

ودراسة نصوصها غاية الأهمية لما طرأ عليها من تطور في الفترة الأخيرة على يد بعض الكتاب منهم الروائي إبراهيم الكوني، والذي استطاع أن يدخل عالم الرواية بقدرته الإبداعية في الفن الروائي العربي والعالمي.

وكانت الغاية والأهمية لدراسة المتخيل الروائي التاريخي في رواية التبر لإبراهيم الكوني هو التعرف على التخييل السردي التاريخي الإنساني في النص الروائي الليبي، ولهذا كان محور اهتمامنا في رواية التبر على هذا الجانب.

ولأن الحياة الإنسانية عامة تمثل التاريخ الإنساني بكل تفاصيله، وموروثه الحضاري، فكانت الدراسة لاكتشاف هذا الموروث، وإمكانيات الروائي التقنية ومصادره التي استقى منها معلوماته وتوثيقه لها بحيث أنه عكف على توظيف الهوامش، والشرح، وبيان تفاصيل تلك المعلومات السردية التي تأتي في ثنايا السرد، وكل هذا التوضيح أراد معرفته ولذلك كان التركيز على الهوامش وبكثرة في الرواية. والأهمية الأخرى تكمن في الوقوف على التوظيف المكاني، وخاصة الآثار في جبال أكاكوس وجمال التصوير والوصف لها.

وقد سعينا في هذا البحث دراسة التوظيف السردي الإخباري التاريخي، والأحداث والوقائع التي حدثت في الزمن الماضي، وذلك بطريقة لاسترجاع، وتمثل في جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي في الصحراء الليبية في الحمادة، والكفرة، والجبل الأخضر وغيرها من المناطق وكذلك معرفة حركة القوافل التجارية عبر الصحراء الليبية وطرق عبورها، والقوافل المحملة بالبضائع ومنها الذهب. كما ركزت الدراسة على أهم القضايا التي احتوتها رواية التبر منها: الهجرة، والمجاعة في فترات زمنية سابقة، وأسباب كلاً منهما. وكانت للرموز والإشارات التاريخية أثرها في النص الروائي لدى الكوني، حيث وظفها وأراد من خلالها توصيل المعلومات للقارئ عن اللغة التي يتكلم بها البربر، وكذلك العلامة التي توضع على فخذ المهري الأبلق، وهي من العرف القبلي السائد لقبائل (آير) في الجنوب.

اما منهج البحث، فقد اعتمدنا على المنهج التحليلي، والتاريخي في تتبع جزئيات البحث، وتحليل النص الروائي، والكشف عن تفاصيله، وقد توزع البحث (المتخيل الروائي التاريخي في رواية التبر لإبراهيم الكوني) على مجموعة من العناوين الرئيسية والفرعية متضمنة هذه العناوين شروح وتفاصيل عن هذا المتخيل الروائي في رواية التبر. وبعدها قدمنا الخاتمة وخلصنا إلى أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

أما عن الدراسات السابقة، فالحقيقة لم تكن هناك دراسات عن هذا الموضوع تحديداً في المتخيل التاريخي لرواية التبر، ولكننا استفدنا كثيراً من بعض الدراسات عن الرواية التاريخية، والرواية بشكل عام، ومنها على سبيل المثال:

دراسة بناء الرواية لسيزا قاسم. الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة -2004م

ودراسة توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة – اتحاد الكتاب العرب-دمشق 2002م

ودراسة الرواية التاريخية زمن الازدهار ضمن تجارب الإبداع العربي – مجلة العربي – الكويت – وزارة الإعلام – 2009م

وبعض الدراسات التاريخية الأخرى التي نهل منها الروائي معلوماته التاريخية في سرده الروائي.

(والحمد لله رب العالمين)

توطئة:

تعد الكتابة الروائية (التاريخية) في ليبيا من بواعث النهوض والتقدم في هذا المجال، إذ يعتبر الروائي الكوني من أهم رواد هذا الفن، فهو يقدم الحوادث الروائية التاريخية المتخيلة والمتنوعة بألوان المغامرة لإيمانه بقيمة علم التاريخ وأهميته لدى القارئ.

وفي رواية (التبر) وظف الكوني التراث بمصادره المختلفة، فأصبح اهتمامه الأول ينصب على دراسة حياة الطوارق في الجنوب الليبي، وقد استطاع استعادة الماضي الغابر في مراحل تاريخية مختلفة، فمثلاً وصفه للآثار في جبال أكاكوس يمثل تاريخاً خالصاً في فترة زمنية معينة، وتتبعه لحركة القوافل في الجنوب الليبي فهي مرحلة أخرى أيضاً، وكذلك جهاد الليبيين ضد المستعمر الإيطالي أحداث لها واقعها التاريخي المتخيل في السرد الروائي.

وعلى كل حال استند الكوني على الحقائق التاريخية التي استقاها من مصادرها التاريخية، ثم ملأ فجواتها بأحداث خيالية تتفق وقيم وروح العصر، وهو يقوم بخلق العالم الروائي مستخدماً ملكة التخيل لديه، مستعيناً في ذات الوقت على مكونات العالم الروائي وعناصره من أحداث وشخصيات وفضاء المكان والزمان.

اعتمد الكوني في روايته (التبر) عناصر الإبداع الأدبي الروائي وحقائق من التاريخ، حيث احتوت على قدر كبير من المعلومات التاريخية، وتبدو للوهلة الأولى أنها رواية تقليدية، وفي تقديري أنه مزج بين المعلومة التاريخية والصياغة الفنية الروائية التي تقوم على التخييل الروائي، بالإضافة إلى مقدرة الروائي العلمية على سرد حوادثها.

وعلى الرغم من تناول بعض الكتّاب دراساتهم لرواية (التبر) في بعض الجوانب التي تمس الحياة الإنسانية، والتراثية، إلا أن الدراسة كانت مقتصرة على بعض القضايا، وبعض التوظيفات السردية المحدودة.

ومن هنا كان لابد من الوقوف على السرد الروائي في رواية التبر وتناوله بنظرة متفحصة باحثة عن مقومات الرواية وسماتها الفنية والتاريخية لأن "الماضي التاريخي هو عامل ذهني يستنبط في كل لحظة من الآثار القائمة أو بعبارة أخرى موضوع التاريخ الماضي الذي هو الحاضر" (العروي، 1992، صفحة 38).

وفي رواية إبراهيم الكوني (التبر) "يبدأ التفاعل بين الإبداع الروائي والإطار التاريخي منذ الصفحات الأولى لكي يستمر على امتداد الرواية كلها". (قاسم ق.، 2009، صفحة 244) وهذا الإطار مرجعه إلى التراث الديني والشعبي والتاريخي.

توظيف الهوامش:

عكف الروائي على توظيف الهوامش في التوثيق الروائي التاريخي، والتي تأتي "على شكل مناصات تاريخية، وقد أدت هذه الوظيفة التوضيحية وساهمت في تعريف القارئ بالأمكنة والبلدان، وقدمت بعض المعلومات الإضافية عن بعض الشخصيات" (وتار، 2002، صفحة 76).

والملاحظ أن الروائي حريص منذ البداية على التوثيق الروائي بدءً بأسماء القبائل والحيوان والنبات... الخ. ويستند في ذلك إلى المصادر التاريخية، فجاءت التعريفات في الهوامش كثيرة منذ البدء في عملية السرد؛ ففي الصفحة الأولى يورد عدة تعريفات في الهوامش، وهي كالتالي:

- بدأ بتوثيق اسم القبيلة (آهجار) التي ورد ذكرها في النص الروائي "عندما تلقاه هدية من زعيم قبائل آهجار" (الكوني، 1992، صفحة 7) وفي الهامش: "آهجار: قبائل عريقة تستوطن جنوب شرق الجزائر". ويستمر في توثيق الحدث برصده للحياة الاجتماعية، وفي سيرة جماعات بشرية تنطوي تحت مظلة القبيلة (الطوارق)، بطلها الزمان والمكان، ولهم روابط اجتماعية وأعراف وحسب ونسب.

ويشير الروائي في النص الروائي إلى النسب لدى قبيلة الطوارق "لدى الشيخ أبناء أخت ثلاثة حسب علمي"، والتوضيح في الهامش: "لدى الشيخ أبناء أخت ثلاثة، يرجع الطوارق في النسب إلى الأم، فابن الأخت هو الذي يرث وليس الابن، وهي تأثيرات المجتمعات الأمومية). (السابق، صفحة 16)[5]

"قال للشيخ موسى: أبلغ الأحمق أن أيموهاغ على حق عندما سنّوا النسب إلى الأم، قل له أن يرافقها إلى بلاد السحرة".

وفي الهامش أيضاً أورد الروائي حقيقة تاريخية، وهي تعريف (ايموهاغ: الطوارق)، وبلاد السحرة: هي كانو وتمبكتو). (السابق، صفحة 73)

ومن التعريفات الهامشية زعيم قبيلة امنغساتن، والذي ورد ذكره في ص119 وهو من الشخصيات الرواية الحقيقية.

"اخنوخن: زعيم آزجر: شيخ قبيلة امنغساتن في القرن التاسع عشر، لعب دوراً رئيسياً في صدّ الغزوات الفرنسية التي كانت تستهدف التوغل في الصحراء الكبرى والسيطرة على تجارة القوافل مات عن عمر تجاوز المائة عام". (السابق، صفحة 119)

والأمثلة كثيرة باستخدام الروائي للهامش: "هل سبق لأحدكم أن شاهد مهرياً" وقد أوضح في الهامش (الإبل المهرية: نجائب تسبق الخيل، منسوبة إلى قبيلة مهرة بن حيدان من اليمن). (السابق، صفحة 7)

وكذلك حيوان الودان "إذا لم تجد شاة غزال أو وداناً"، وفي الهامش جاء التعريف (الودان أو (الموفلون): أقدم حيوان في الصحراء الكبرى...). (السابق، صفحة 79)

أما النباتات التي ذكرها الروائي في سرده الروائي، فقد أورد لها تعريفات جاءت على شكل معلومات ذات أهمية للقارئ، منها نبات السدرة، وآسيار، والترفاس.

"ولكن شفاء جملك في آسيار" وجاء التعريف لنبات آسيار في الهامش: يعتقد أن بقايا السلفيوم، وهو نبات أسطوري يعطي طاقة هائلة، انقرض من ليبيا في القرن الثالث قبل الميلاد ويجمع المؤرخون القدماء أنه كان دواء سحرياً لكل الأمراض المعروفة في العالم القديم، وكان ملوك ليبيا القدماء يصدرونه إلى مصر وما وراء البحار ويعتقد الكثيرون أن فيه يكمن سرّ التحنيط إذ استخدمه الفراعنة لهذا الغرض". (السابق، صفحة 20)

وفي الهامش أيضاً ص31 يورد معلومة عن السدرة بحسب المتعارف عليه في القبيلة "السدرة الأسطورية الضائعة: أسطورة للطوارق تتحدث عن سدرة في مكان ما من الصحراء تحتها نبع من وجدها وشرب من النبع عاش خالداً أبد الدهر".

أما سدرة المنتهى التي أشار إليها في النص الروائي "أعد نفسك للرحلة، إنها سدرة المنتهى"، وقد أورد لها تعريفا مستنداً في ذلك على القرآن الكريم.

سدرة المنتهى: وردت في القرآن في سورة النجم (النجم، 11–14). وقد أولاها محي الدين ابن عربي اهتماماً كبيراً سواء في الفتوحات المكية أو كتاب المعراج. (السابق، الصفحات 31–32)

وعن نبات الترفاس أورد معلومة هامشية عنه بعد تناوله في السرد الروائي "حتى يضع قطع من الترفاس".

و(والترفاس: هو الكمأ ينمو أساساً في الحمادة الحمراء وهو ثلاثة أنواع الأبيض والأسود والأحمر حسب التربة). (السابق، صفحة 33)

ومن التعريفات الهامشية التي أوردها الكوني، وإعطاء معلومات حولها، الطريقة التيجانية والقادرية، فقد وردت في النص الروائي التالي:

"هل هذا ما يراه السكارى بالوجد؟ هل هذا ما يسميه شيوخ التيجانية ولقاء القدر" وفي الهامش: (التيجانية: نسبة إلى العالم الإسلامي التيجاني الذي أسس هذه الطريقة في القرن التاسع عشر).

والقادرية "فاتهمهم شيوخ القادرية" في الهامش: (القادرية: نسبة إلى العالم الإسلامي عبد القادر الجيلاني الذي أسس أحد أهم المذاهب الصوفية في القرن الثاني عشر الميلادي). (السابق، صفحة 55)

وعن المكان، فقد وثق في سرده الروائي (آير) والذي ورد في النص الروائي: "جاء من آير" وفي الهامش: (آير الصحراء الواقعة بين مالي والنيجر ونيجيريا) (السابق، صفحة 25) ولكنه يورد معلومة أخرى في الصفحة 67، "جاءت الحسناء من آير"، وفي الهامش أيضاً: آير: يطلق آير أحياناً أخرى على تمبكتو أو أغاديس أو كانو. (السابق، صفحة 67)

وبهذه الوظيفة التوثيقية السردية واستخدامه للهوامش، والتي أضفت على السرد ميزة تاريخية، بهدف إقناع القارئ بصدق المعلومات التاريخية في النص الروائي، والتأثير فيه، وقد أكدت هذه الهوامش وظيفة توثيقية طرحها الكوني عبر النقلات السردية منها:

كشف السلالة العرقية لقبائل (أهجار) وزعيم آزجر (اخنوخن)، ومعرفة قوانين العرف والنسب لدى الطوارق، بذلك نقل عاداتهم وتقاليدهم...

وأغلب الهوامش كان لها الأثر العلمي المعرفي والفني للقارئ في الرواية، لاعتمادها المعلومات التاريخية.

التوظيف التاريخي للأمكنة:

لقد امتزج الخيال الروائي فيه بالتاريخ، فأصبح على السارد "أن يستخلص من بعض المصادر قيمة، وعبرة، ويستخرج من بعضها الآخر حكايات، ثم يمزج بين هذه الأشياء لتكون وحدة مكتملة وسهلة الاقتراب". (وون، 2006، صفحة 9)

ولهذا كان اعتماد الروائي على مجموعة من الإشارات الجغرافية التي تحدد البعد المكاني، وذلك من خلال وصف حقائقه وتحديد معالمه، وربطها بالأماكن الواقعية، وخاصة في تناوله للصحراء، والمناطق المحيطة بها (الحمادة الحمراء، والواحات والأودية...).

وفي هذه الأماكن استطاع تصوير جماليات المكان التاريخي باللجوء إلى المخيلة الإبداعية لديه ليجعل العمل الإبداعي روحاً تحيا بها من خلال هذه الأماكن، فجاء التعبير عن الآثار ووصفه لها حقائق منتزعة من التراث والمعالم التاريخية الواقعة في الماضي والحاضر.

وهذا التوظيف الروائي التاريخي للمكان يأتي في ثنايا السرد من خلال توثيق الخبر وربطه بمرجعه التاريخي الواقعي في الزمن الماضي عبر حقبة زمنية تاريخية معينة، فنجده يستحضر الماضي عبر مخيلته، وذلك بالتركيز على الآثار في الحمادة (أكاكوس)، ورسم حقائق تفاصيلها في الفضاء المكاني، لما تمثله من أهمية كبرى في إثراء الحدث "سافر إلى الحمادة الغربية، توجه إلى النصب الوثني القديم بين الجبلين... في مدخل الجبلين المتقابلين... في الزمان القديم لم يظنوا أنه صنم، كان الضريح مزاراً للجميع حتى الفقهاء وعلماء الدين أجمع الجميع أنه ولي شهد بداية الفتوحات" (الكوني، 1992، الصفحات 28-29).

لم يكتف الروائي بالإشارة إلى مكان النصب الوثني القديم، بل لجأ إلى الوصف عبر المخيلة "قاعدته مثلثة الزوايا. في نهاية المثلث تجسم صورة الإله مباشرة بصخرة كبيرة فوق الصدر، ارتفع الرأس فتم الاستغناء عن الرقبة أيضاً، ملامحه خفية تنطق بعبادات آلاف السنين" (السابق، الصفحات 29-30).

ويستمر في وصفه لهذه الآثار "كان يحرث بسبابته الأرض ويرسم المثلثات المقدسة حيناً، ثم يعود فيمحو وجه (تانيت) بعصبية، في حين تسري الرعدة في أطراف الأصابع ولا يدعي الآن أنه يستطيع تأويل هذه العلامة الخفية في ذلك الوقت" (السابق، صفحة 110).

وترى سيزا قاسم في جمالية التصوير والوصف "بأن الرواية تشبه الفنون التشكيلية من رسم ونحت في تشكيلها للمكان وأن المساحة التي تقع فيها الأحداث وتفصل بين القارئ وعالم الرواية له دوراً أساس في تشكيل النص الروائي" (قاسم س.، 2004، صفحة 103).

ويتابع الوصف "على يساره نحت هؤلاء السحرة مشهداً ساحراً مجموعة من الرعاة تطارد وداناً متوجاً بقرنين كبيرين يتجه إلى جبل بعيد... الصيادون يمسكون بالرماح والبعض الآخر يلوح بالقوس ليطلق النبال صوب الضحية" (الكوني، 1992، صفحة 149).

ولعل أبرز التقنيات السردية التي وظفها الروائي هنا هذه الوقفة والاسترجاع معاً حين يلجأ إلى الوصف من خلال الأشكال السردية المتعلقة بالزمن، والتي تأتي عبر المخيلة، ولقد أشارت المصادر التاريخية إلى تلك الآثار في جبال أكاكوس، أما وادي أكاكوس، "فهو يقع شرق غات تماماً، يفصل بينهما الجبل نفسه وفيه عين وماء وحولها نبات الديس الصحراوي، وهناك أيضاً على صخور السلاسل الجبلية الرئيسية نقوش ورسومات تدل على البراعة والفن، وتتمثل في نقوش محفورة، والواحات مرسومة تتبدى فيها روعة الفن وجمال التصوير" (أبوصلاح، 1991، صفحة 161).

ومن التوظيفات التي أحاط بها الروائي في رواية التبر هذا التوظيف التاريخي للفضاء المكاني الذي يشغل فيه المكان الصحراوي الحيز الأكبر في الرواية، حيث رصد الروائي في روايته الحياة الاجتماعية والروحية والإنسانية في الصحراء الليبية الكبرى، يرتبط فيها المكان بالشخصية، سواء أكان الإنسان أم الحيوان منذ لحظة ميلاده، يتأصل فيها ويمتزج به ليصير الانتماء والبقاء، ونجد الروائي يقيم علاقات ذات ملامح تاريخية، فانطلق من الصحراء وراح ينسج خيوط الأحداث عبر فضاءات ضاربة في عمقها التاريخي وجذورها الممتدة نحو الصحراء، ونلمح ذلك من خلال السرد الروائي "وزارهم في مستقرهم الصيفي في أدرار" (الكوني، 1992، صفحة 74).

وأدرار أو تادرارت: فهي كلمة بربرية تستمد وجودها من اللهجات المحلية، وبالتحديد من اللهجة (التارقية) ومعناها: الجبل، ويقابلها أدرار في تاسيلي، ويعتبر المؤرخون منطقة تادرارت ضمن أزجر" (أبوصلاح، 1991، صفحة 160).

والملاحظ أن الرواية قد خطت خطوة مهمة في الاتجاه نحو التاريخ الإنساني وتجسيده، وقد اختار الكوني الفضاء المكاني في رصد التحركات لشخوصه، فالصحراء أصبحت "أكثر من غيرها تعبيراً عن القضايا لما فيها من إمكانات كثيفة مستبطنة" (عبدالغني، 1994، صفحة 188).

والصحراء مكان له حمولاته التاريخية يخيل إلى رؤى تخيلية في الزمن البعيد، وظفها الروائي التوظيف التاريخي الذي يحمل صراع الإنسان مع الطبيعة عبر الحقب المتلاحقة تاركاً ذلك الإرث التاريخي عبر هذا الفضاء، حيث "النقوش المرسومة على وجوه الحجارة وجدران الكهوف واللوحات القديمة" (وتار، 2002، صفحة 25).

وعبّر الروائي في الصحراء عن الحياة الإنسانية والقوانين والطقوس المعتادة، والمتحكمة في مصير الإنسان "الصحراء وحدها تغسل الروح، تتطهر، تخلو، تتفرغ، تنتفض" (الكوني، 1992، صفحة 126) وأيضاً "الصحراء لا ترحم، الصحراء أسوأ من المحو، أسوأ من الفناء" (السابق، صفحة 110).

الصحراء لا ترحم... وإذا لحقت لعنة العار أحداً في الصحراء فإنه يمحى من ذاكرة الناس" (السابق، صفحة 110).

ومن الأمكنة التي وظفها الروائي تلك الأمكنة المجاورة (الواحة) وهي امتداد للصحراء، فقد جعلها مسرحاً آخر تتحرك الشخصية في إطارها "لم يمض على عودته إلى الواحة أسبوع واحد..." (السابق، صفحة 109).

وعندما جاءه أول مرة في الواحة، ونزل ضيفاً عليه..." (السابق، صفحة 110).

"ومكث معهم أياماً في الواحة، ثم استأذن للسفر باع جملاً وناقة للفلاحين، وتزود بالتمر والشعير" (السابق، صفحة 75).

وكان هذا التوظيف التاريخي للمكان "الصحراء" له دلالات لا نهائية تحيل إلى الزمن الماضي ذلك أن "... بعض الأماكن تحمل دلالاتها التاريخية فور التعامل معها ورؤيتها ..." (نجم، 2009، صفحة 107) مثل الصحراء.

التوظيف التاريخي الإخباري:

يسعى الروائي في روايته (التبر) إلى تقديم مادته معتمداً على السرد التقليدي للإخبار بوقائع تاريخية لها أثرها الكبير لدى المتلقي، ومن أبرز الإشارات التاريخية التي بثها الروائي في ثنايا سرده على شكل أخبار متناثرة بين السطور، تلك الأخبار التي تنقلنا إلى زمن النضال والجهاد الليبي ضد المستعمر الإيطالي "في تلك الأثناء شهدت الحمادة الحمراء أحداثاً دموية، إذ نجح الغزاة في كسر المقاومة بالسواحل وتدفقوا في الدواخل عبر الصحراء الشمالية جاء الرسل لتجميع المقاتلين... جاءت الأنباء بانكسار المقاومة في الحمادة أيضاً... باستشهاد الوالد، قيل أنه قاوم ببسالة بل أن أهل الصحراء نظموا القصائد بعدها تمجيداً لبطولاته ربما لأنهم لم يتوقعوا من رجل مزواج متيم بالسبايا الزنجيات أن يسطر المآثر في مقاومة الطليان... أحد الرعاة أخبره أن الهجوم المباغت لم يفقده السيطرة على نفسه، فطاف على القبيلة وجمع المقاتلين وحارب حتى حوصر معسكره..." (الكوني، 1992، صفحة 147).

استأنف الكوني في تصويره للأحداث بوصف دقيق لمشهد استرجعه من زمن الحرب ضد الطليان، مستغلاً دور الشخصية في إثراء الحدث، ومن خلال هذا العرض لبنية الاسترجاع في الرواية عبر الاستذكار والتخيل للزمن الماضي، استطاع الروائي تصوير البطولات التي شهدتها الصحراء الليبية ومقاومتها للغزاة الإيطاليين، مستنداً على الحقائق التاريخية في ذلك:

"وعندما غزا الإيطاليون فزان في عام 1913م، هذا الصف المكون من هذه القبائل، كان عاملاً وقوة مهمة وراء هزيمة الإيطاليين في فزان وطردهم منها بدأت المقاومة منذ الأيام الأولى من الغزو ولكن كان هناك القليل من النظام والكثير من الفوضى، كان المجاهدون يندفعون إلى ميدان المعركة دون تغطية أو تخف يذكر، هذا التصرف جعل المجاهدين أهدافاً سهلة للبنادق الإيطالية ورفع من عدد الشهداء..." (البربار، 1990، صفحة 48).

وعمل السارد من خلال العودة إلى الماضي الالتفات إلى مرحلة مهمة في تاريخ ليبيا، فترة الجهاد الليبي ضد الإيطاليين، "الحمادة الآن مطوقة بالغزاة الطليان ينتهكونها من الشمال وقبائل آير تنتهكها من الجنوب" (الكوني، 1992، صفحة 147).

وتتوالى المقاطع السردية "الطريق إلى الحمادة مازال مهدداً بالغزاة" (السابق، صفحة 44).

وفي مقطع آخر: "وعندما كان يتردد على الأودية المجاورة لصيد الغزلان في سنوات الرخاء قبل أن يقتحم الطليان البلاد ويدفعوا بالقبائل إلى الهجرة" (السابق، صفحة 153).

ترتبط عملية السرد بحركة آلية تنسج مجموعة من الأحداث المتتابعة لتشكيل الحدث مستغلاً الشخصية في لعب الدور والتنقل بين الأودية، وقد حدث هذا في زمن سابق لزمن اقتحام الطليان البلاد، وهو زمن آخر، بذلك تكون الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث الرواية مرتبطة بالزمن التخييلي والاسترجاع الخارجي لسرد أحداث من الزمن الماضي البعيد.

وفي مقطع روائي آخر: "منذ أسابيع طاف رسل المجاهدين المقاتلين يريدون دعم صفوفهم في الكفرة وبعض مناطق الجبل الأخضر" (السابق، صفحة 94).

وبعمل الروائي على خلق خطاب يمزج فيه بين الواقع التاريخي والفن التخييلي عبر المقاطع الإخبارية، والتقاط تفاصيل من الزمن الماضي، وهو زمن الجهاد الليبي ضد المستعمر الإيطالي في مناطق الكفرة والجبل الأخضر.

القوافل التجارية:

استطاع الروائي في روايته (التبر) أن يخلق عبر فضاء الصحراء تركيبة مجتمعية لها علاقات مترابطة فيما بينها تخدم طبيعة الأحداث في الرواية.

ويورد الروائي بذلك الأخبار التاريخية عن القوافل وطرق عبورها "... برفقة قافلة تجار أعطاه مرهماً معتماً..." (السابق، صفحة 25).

ويتابع في رصده لتحركات الشخصيات "نزل عليهم قريب زوجته ضيفاً... جاء مرافقاً لقافلة محملة بالذهب والعاج وريش النعام... باع ذهبه وريشه وعاجه في غدامس قبل أن يبلغها سبيل الغزاة" (السابق، صفحة 74).

والملاحظ أن الكوني يسعى إلى الإخبار عن حركة القوافل المحملة بالبضائع وذكر أنواعها، فكان منها: الذهب، وريش النعام، والعاج، كل هذه البضائع تباع في غدامس. وهي حقائق موثقة في التاريخ، "إذ يشير غروته أن تراب الذهب المصدر من بلاد السودان إلى الشمال عبر أسواق الواحات الليبية الداخلية مثل مرزق وغدامس وغات يأتي من حيث الأهمية بعد تجارة الرقيق قبل تحريمها وبعد ريش النعام" (فرانشيسكو، 1971، صفحة 107).

ونلمح في هذا النص الروائي مصداقية المعلومة التاريخية في رواية (التبر) "منذ شهور فقط استقبل قافلة من تمبكتو واشترى بضائعها بالجملة... وما لبث أن باع نفس البضائع لتجار غدامس بأسعار مضاعفة يقال إنه اشترى الحبوب وطمرها في الرملة شرق الغابة وشرع ببيعها للفلاحين بعد اشتداد الأزمة بأثمان خيالية" (الكوني، 1992، صفحة 84).

وتتوالى المقاطع السردية حول القوافل "فبعد نشوب الحرب في السواحل، ارتبكت حركة القوافل إلى الدواخل في أعماق القارة، وتوقفت القوافل والتجارة..." (السابق، صفحة 78).

و"في الصباح قالت له فلاحة إن العرافة التباوية هاجرت، جاءت وابنها وأخذها معه في قافلة عابرة إلى غدامس..." (السابق، صفحة 83).

هذا الحدث الاجتماعي التاريخي، والذي برز في الرواية في رؤية تخييلية سردية، له دلالة تاريخية، وفي ذات الوقت محاولة الروائي لربط الواقع بالماضي، لأنها تحمل سيرة جماعة تجمعهم روابط وحقبة زمنية واحدة، وفي الإطار الجغرافي المكاني يخلد سيرتهم ويحمل بصماتهم في تلك البقعة (الصحراء).

وعن طريق هذا الفن، أورد الروائي العديد من المقاطع السردية التي تحكي عن حركة القوافل والمدن التي تبرز فيها التجارة، وهي حقائق تاريخية حيث "يورد عبد القادر جامي أن بعض القوافل التجارية القادمة من أواسط نيجيريا كانت معها تراب الذهب وسبائكه إلى أسواق مرزق" (جامي، 1974، صفحة 93).

إذن يسلط الكوني الضوء على حركة القوافل ونشاطها في الجنوب الليبي مستنداً على المادة التاريخية.

أهم القضايا التي احتوتها رواية التبر:

- **الهجرة:**

اتكأ الروائي على تقنيات السرد للجمع بين عناصر التخييل والسرد والحبكة، وحاول توظيف الخطاب الإخباري في ذلك، فجاءت الأخبار متوافقة والأحداث.

"سألها عن آير والجفاف وآلام الهجرة من تمبكتو" (الكوني، 1992، صفحة 68).

وفي مقطع روائي آخر: "الاغتراب الأبدي والحنين الدائم للعودة إلى السكينة والأصل... حنين إلى تلك الواحة الرحيمة التي لا وجود لها... الواحة الأصلية... الواحة التي تعتبر واحات فزان كلها مجرد ظل بائس لها" (السابق، صفحة 68).

و"في قانون الصحراء يكلف المهاجر حياته" (السابق، صفحة 75).

وفي النص الروائي يوضح الأسباب التي تدفع إلى الهجرة "لأن الجذب هناك دفع إلى الصحراء الشمالية بمزيد من المهاجرين، ولكنه نزح إلى الأودية السفلية المتآخمة لحدود فزان" (السابق، صفحة 73)، وعمل الروائي على طرح قضية الهجرة وأسبابها، ولعل من أهم العوامل التي أدت إلى الهجرة، كان الجدب العامل الرئيس، ولكن توجد عوامل أخرى أشارت إليها الدراسات التاريخية، منها عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية.

وحاول السارد توثيق المسرود مستحضراً قضية الهجرة والترحال، وقد استقاها من مصادرها التاريخية، وتعتبر الصحراء والواحات "باعتبارها مناطق عبور واستقرار تجذب إليها الكثير من الجماعات والأفراد بهدف الاستيطان أو الاستقرار أو هروباً إليها من أوضاع اجتماعية واقتصادية أو سياسية في أوطانهم، فنجد في هذه الواحات البعيدة الأمن والطمأنينة وفرص العيش الكريم، فكانت هذه الواحات مناطق التقاء لجماعات وأسر وقبائل مختلفة على مر العصور، اختلطت بدرجات متفاوتة فيما بينها وبالسكان المستقرين ونتج عن ذلك التركيبة السكانية الحالية في هذه الواحات" (الهازل، 1991، صفحة 7).

ويوضح السارد فيه أن العامل الرئيس هو الجدب "جاءت الحسناء من "آير" مع أقاربها هرباً من الجدب الذي حاق بتلك الصحراء في السنوات الخمس الأخيرة (الكوني، 1992، صفحة 67).

"فمن في الصحراء لم يذق طعم الجدب؟ ... من لم يهاجر؟ من لم يتغرّب؟" (السابق، صفحة 68)

و"عندما مات الأب هاجرت قبيلتها إلى "آزجر"" (السابق، صفحة 107).

"فعاد إلى آير ووجد أنها قد هاجرت" (السابق، صفحة 107).

- **المجاعة:**

حاول الروائي من خلال البيئة المكانية الصحراوية وصف ما يحيط بها من ظواهر وقضايا اجتماعية، حيث يعمل على استخدام الاسترجاع بالزمن إلى الوراء، فلننظر إلى هذه الأمثلة:

"و... اشتد الجوع، وشمل الصحراء كلها ولكن استمرار الحرب صعّد الجوع... في السنين العجفاء... تذكر كيف شوى مداسه الجلدي وأكله منذ أسابيع في الصحراء الرملية" (السابق، صفحة 78).

"لم يستطع أن يصمد أكثر، فنزع نعله الجلدي، جمع الحطب وأوقد النار، شواء على النار حتى تلوى وانكمش ثم نهشه بشراهة..." (السابق، صفحة 79).

و"من حرب الجرب إلى حرب الطليان ومن ألم العطش إلى عذاب الجوع..." (السابق، صفحة 86).

و"الحرب جاءت بالجوع ولكنها ضربت سعر المضغة" (السابق، صفحة 93).

و"في الليل حدّثه عن الجوع في الصحراء، قال إن عائلات بأكملها ماتت ودفنت في مقابر جماعية، خاصة في السنة الأخيرة في الصحاري الجنوبية نزلت أمطار شحيحة فحلّ الجذب مبكراً مع الصيف" (السابق، صفحة 94).

"لكن العرافة التباوية التي هاجرت قبل المجاعة بوقت قصير كانت آخر من تعاطى الرقية في الواحة..." (السابق، صفحة 97).

يقدم السارد الحقائق إلى القارئ بآليات تمزج الحقيقة بالخيال، وتجسد قضية يريد الروائي من خلالها أن يطرح موقفاً إنسانياً واجتماعياً ورؤية خاصة إزاء واقع تاريخي.

فالأحداث تسير في خط تصاعدي له بداية ونهاية، وعلى الرغم من أنها تلتقي والأصل التاريخي والمتخيل الروائي المتمثل في الجهاد الليبي ضد الاحتلال الإيطالي وبعض القضايا منها الهجرة والمجاعة، إلا أنها لا تتقيد بالتسلسل الزمني، بل تعتمد إلى تحطيمه والخروج عليه. فثمة فواصل زمنية بين الأحداث، بالإضافة إلى البطء والسرعة، مما يحمل في طياته بعض التقاطعات مع الماضي.

توظيف الرموز والإشارات التاريخية:

رأى الروائي (الكوني) أن يقدم للقارئ الأخبار التاريخية في سرده الروائي عبر الاسترجاعات التي تحدث في الرواية، وذلك من خلال الوصف ورسم صورة الآثار القديمة، وعن طريق شخصية العراف المخيف أشار إلى اللغة عند الطوارق لأن ذلك "العرّاف المخيف أول من حطم الأسطورة وقرأ الرموز المحفورة على قاعدة الصنم. قال إنه لقب الإله الصحراوي القديم، وتوصل إلى فك الشيفرة في أبجدية التيفيناغ" (السابق، صفحة 29).

هذه اللغة التي أشار إليها الكوني، هي لغة الطوارق وتسمى بالتيفيناغ، ولأن اللغة هي الوسيلة والأداء يرى غويته خلال تعرضه لموضوع الطوارق فيما كتبه قوله: "وهم يتكلمون لغة البربر ويكتبونها ولهم حروف هجائية تسمى (التيفيناغ) (أماهين، ط 1، صفحة 216).

والسؤال هنا لماذا لجأ الروائي إلى الآثار ورموزها؟

وفي اعتقادي أن الكوني يدرك تماماً بأن الآثار الموجودة في الصحراء الليبية هي جزء من الحضارة والموروث التاريخي الليبي السائد في فترة من الزمن الغابر وهو يحاول ربط الحاضر بالماضي عند قراءة تلك الرموز، والتي أعطته إيحاءات رمزية في صورة دلالية لها علاقة بالانتماء، وكأنه أراد القول: بأن اللغة لدى الطوارق لها جذور، وبأنها موجودة بالفعل وربما ارتباط الكوني بالصحراء الليبية، والمكون القبلي (الطارقي) الذي ينتمي إليه ساعده في هذا التوظيف، وسرعة

وقوة التخيل لديه أوحت له بهذه الإيحاءات ذات الدلالات اللغوية، وبواسطة ذلك العرّاف استطاع كشف وقراءة الرموز في صورة تخييلية سردية لها دلالاتها.

أما الإشارات التي وردت في النص الروائي، عندما وصف المهري الأبلق "وبدل سيماء القبيلة (+) وسموه على فخذه الأيسر بسيماء قبائل آير (+ll) (الكوني، 1992، صفحة 109) وهي علامات رمزية ذات دلالات تاريخية تعكس الموقف الفكري والاجتماعي لهذه القبائل، وتعبر بها عن هويتها، ولارتباطها بالحدث في الرواية.

وفي ختام البحث نخلص إلى أهم النتائج:

- صور الكوني الصراع القائم بين الخير والشر، والذي قدّمه في روايته (التبر) مرتبطاً بالخيال والتاريخ في آن واحد، ويكثر فيها الصدف وألوان المغامرة التي تتدخل في تحريك الأحداث.
- حاول أن يمزج بين الخيال والتاريخ في سرده الروائي، لذلك اشتملت الرواية على الكثير من التوظيفات في المتخيل الروائي التاريخي لرواية (التبر)، منها:
- توظيف الهوامش التي أضفت على بنية السرد روح المتعة، وساهمت في إعطاء أكبر قدر من المعلومات التاريخية، فجاءت على هيئة تعريفات هامشية استقاها الروائي من مصادرها التاريخية، وهي وظيفة توضيحية تم التعريف بها عن البلدان، والأمكنة، والحيوانات، والنباتات وغيرها.
- وفي التوظيف التاريخي للأمكنة الروائي اعتماده على مجموعة من الفضاءات الجغرافية المكانية، وخاصة في الجنوب الليبي، وتحديداً لدى قبائل الطوارق، وكان من أهمها: (الحمادة الغربية، جبال أكاكوس وآثارها، واصفاً نقوشها ورسومها المحفورة وغيرها، وبذلك عمل على توظيف الإمكانات الدالة على تلك الإشارات التاريخية، والرموز الأثرية في عملية التخييل السردي للأحداث.
- ومن التوظيفات المكانية (الصحراء الليبية) لما تمثله من بؤرة للحدث ومسرحاً له.
- استخدم الكوني لفظة (الصحراء) في سرده الروائي، هذا الحيز المكاني، والذي يحمل في عمقه التاريخي مكون الطوارق وحياتهم الخاصة في الجنوب الليبي.
- ومن الأماكن (أدرار) التي تقع حسب المصادر ضمن منطقة (آزجر).
- تتكرر لفظة الواحة في النص الروائي وهي أيضاً تتحرك في محوره الشخصية الروائية وتتفاعل معه بطقوسه المعهودة في تلك الصحراء.
- ويأتي التوظيف الروائي التاريخي للأخبار، وفيه ينقلنا إلى زمن الجهاد الليبي ضد المستعمر الإيطالي، فجاءت في هذا الصدد الأخبار المسرودة متناثرة بين طيات السرد، وعلى الرغم من ذلك، إلا أنه حاول تصوير حركة الجهاد الليبي ضد الاستعمار الإيطالي في مناطق الجنوب، وامتدادها إلى الجبل الأخضر، وهذا ما جاء به النص الروائي في رواية (التبر) وهو بذلك يستند إلى الحقائق التاريخية.
- تعرض الكوني إلى حركة القوافل التجارية من تمبكتو وصولاً إلى غدامس، وأهم البضائع التي كانت القوافل التجارية تحملها لبيعها في غدامس، ريش النعام، والذهب، والعاج، وهذا ما أكدته المصادر التاريخية. بالإضافة إلى ذلك، أنه يشير إلى العلاقات التجارية المتبادلة بين الأفراد في الجنوب الليبي مع الأماكن الأخرى المجاورة.

- حاول من خلال سرده الروائي الوقوف على أهم القضايا والتي أراد الكوني تسليط الضوء عليها منها الهجرة، ودوافعها، والتي يرى حسب المصادر التاريخية كان الجدب من أهم هذه العوامل، ثم تأتي قضية اجتماعية إنسانية أخرى عرضها الكوني في سرده الروائي، وهي المجاعة.
- أورد الكوني في سرده الروائي الرموز والإشارات في إشارة منه إلى لغة الطوارق وهي (التيفيناغ) لغة البربر والمشار إليها في المصادر التاريخية.
- أما الرموز، فقد تمثلت في العلامة الموسومة على فخذ الإبل والمتعارف عليها لدى قبيلة الطوارق والخاصة بهوية القبيلة.

وهكذا، يتبين أن (الكوني) أراد من خلال السرد الروائي في رواية (التبر) أن يوفر للقارئ المادة التاريخية التي تجذبه للقراءة والإلمام بالمزيد من المعلومات، وهذا يعني أن الروائي ليس مؤرخاً يقوم بتوثيق الخبر تاريخياً، وإنما يضفي على السرد الروائي قيمة تاريخية يجمع بين الحقيقة والخيال، والتاريخ بالفن، وهو ينقله إلى عالم الصحراء وقبائلها (الطوارق) عبر أزمنة بعيدة في التاريخ الإنساني، ومراحل متعددة، فسار الزمن في الرواية على فترات متقطعة ومتعددة في تنقلاته السردية، بدأها بتوثيق أصول قبيلة أهجار ثم الآثار القائمة في أكاكوس وحقيقة أخرى تمثلت في جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، وغيرها من الإشارات التاريخية، وقضايا أخرى ترتبط بحياة الطوارق الاجتماعية والإنسانية.

وفي هذا السياق الذي قمت بالبحث فيه، كان لابد من ربط الأدب بالتاريخ لأن العلاقة بين التاريخ والرواية علاقة تكاملية، فالتاريخ مصدر مهم لفهم طبيعة المجتمعات، يحمل سيرتهم وتجاربهم وحروبهم، وهذا الإطار يتخذه الروائي ويفيد منه في بناء عمله الروائي، وبعث الحياة من جديد في شرايين التاريخ ليحيا من جديد ذلك العصر، فقد استلهم الكوني التاريخ برؤية سردية فكرية وتاريخية متفحصة لأزمنة متعددة في التاريخ الليبي، وقبائل الطوارق خاصة، ليحقق إضافة إلى التراث الإنساني بشكل عام.

المصادر والمراجع:

إبراهيم الكوني. (1992). *رواية التبر*. بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.

أبوصلاح حبيب أبوصلاح. (1991). *تادرارت أكاكوس تشونيت*. مركز دراسة جهاد الليبيين مجلة البحوث التاريخية السنة 13، ع 2.

السيد نجم. (2009). *خصوصية المكان في القصة الحربية القصيرة*. القاهرة: ملتقى القاهرة الدولي للقصة، المجلس الأعلى للثقافة.

الشاوي اللاله البكاي أماهين. (ط 1). *الطوارق عبر العصور*. بنغازي: دار الكتب الوطنية.

سيزا قاسم. (2004). *بناء الرواية*. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.

صالح بارك جاي وون. (2006). *الرواية التاريخية عند محمد فريد أبو حديد*. رسالة دكتوراة غير منشورة. جامعة القاهرة: مصر .

عبد القادر جامي. (1974). *من طرابلس إلى الصحراء الكبرى*. دار المصراتي.

عبدالله العروي. (1992). *مفهوم التاريخ*. بيروت: المركز الثقافي.

عقيل محمد البربار. (1990). *المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي 1911م-1932م دراسة في الأسباب والأنماط*. طرابلس- ليبيا: مركز جهاد الليبيين مجلة البحوث التاريخية، السنة 12، ع 1.

علي عمر الهازل. (1991). *الواحات العربية في ليبيا التراث وآفاق المستقبل*. طرابلس: مركز الجهاد الليبي، مجلة البحوث التاريخية ع 2.

قاسم عبده قاسم. (2009). *الرواية التاريخية زمن الازدهار ضمن تجارب في الإبداع العربية*. الكويت: وزارة الإعلام مجلة العربي.

كورو فرانشيسكو. (1971). *ليبيا أثناء العهد العثماني . ترجمة خليفة التليسي* . طرابلس: دار الفرجاني.

محمد رياض وتار. (2002). *توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة*. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

مصطفى عبدالغني. (1994). *الاتجاه القومي في الرواية، عالم المعرفة*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.